سالم
موقع التفريغ
للدروس العلمية والبحوث الشرعية
www.attafreegh.com

تعليقات

الشَّيخ صالح بن عبد الله العُصيمي

علىٰ

نور البصائر والألباب

في العبادات والمعاملات والحقوق والآداب

للعلَّامة عبد الرَّحمن بن ناصر السِّعدي

مسودَّة

الدَّرس السَّادس

الحقوق والآداب

السَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الحمد لله الَّذي نوَّر البصائر بالعلوم، وزيَّن الألباب بمحاسن المنطوق والمفهوم، وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمَّدًا عبده ورسوله ﷺ ما لاحت الأنوار، وعلىٰ آله وصحبه البررة الأخيار.

أمَّا بعد، فهذا الدَّرس السَّادس في شرح كتاب «نور البصائر والألباب» للعلَّامة عبد الرَّحمن بن ناصر بن سعديٍّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهو الثَّالث في شرح قسم الحقوق والآداب، وقد انتهىٰ بنا البيان إلىٰ قوله منه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فصلٌ في حقوق أهل العلم).

[١] فصلٌ في حقوق أهل العلم

[٢] أعظم الحقوق الواجبة بعد حقِّ الرَّسول: حقوق العلماء المعلِّمين الَّذين هم الواسطة بين الرَّسول وبين أمَّته في تبليغ دينه، وبيان شريعته، الَّذين لولاهم لكان النَّاس كالبهائم. [٣] حقوقهم علىٰ الأمَّة أعظم من حقِّ الآباء والأمَّهات، فإنَّهم رَبَّوا أرواح العباد وقلوبهم بالعلوم النَّافعة، والمعارف الصَّحيحة، [٤] وهم هُداة الأمَّة في أصول دينهم وفروعه، [٥] وهم المَرْجُوع إليهم في أحكام الحقوق والمعاملات، كما أنَّهم المَرْجُوع إليهم في أمور العبادات. [٦] بهم قام الكتاب والسُّنَّة، وبهم اتَّضح الحقُّ من الباطل، والهدىٰ من الضَّلال، والحلال من الحرام، والخير من الشَّرِّ، والصَّلاح من الفساد.

[٧] وهم في ذلك علىٰ مراتبهم طبقاتٌ، بحسب ما قاموا به من العلم والتَّعليم، والنَّفع الكثير أو القليل، [٨] فحقُّهم علىٰ الأمَّة كبيرٌ، ومقامهم جليلٌ، [٩] فعلىٰ النَّاس أن يحبُّوهم، ويُجلُّوهم، ويوقِّروهم، [١٠] ويعترفوا بفضائلهم، وفواضلهم، [١١] ويشكروهم علىٰ ذلك غاية الشُّكر، [١٢] ويدعوا لهم سرًّا وعلنًا، [١٣] ويتقرَّبوا إلىٰ الله بمحبَّتهم والثَّناء عليهم، [١٤] وينشروا محاسنهم، [١٥] ويغضُّوا القلب واللِّسان عن مساويهم الَّتي إذا وُجدت اضمحلَّت في جنب محاسنهم.

[١٦] وعليهم أن ينتهزوا الفرصة في وجودهم، فيغترفوا من معين علمهم، ويسترشدوا بنورهم، [١٧] ويعملوا جميع ما يقدرون عليه من الأسباب الَّتي تريحهم وتفرِّغهم لما هم بصدده من مهمَّاتهم الَّتي هي أعظم المهمَّات علىٰ الإطلاق، من تعليم الطَّلبة المستعدِّين، والتَّجرُّد لهم، ومن إرشاد العوامِّ، ومن الفتاوىٰ الصَّادرة منهم والواردة عليهم، ومن استعدادهم للحكم في قضايا الخلق، وفصل خصوماتهم، إلىٰ غير ذلك ممَّا لا يُحصىٰ ممَّا هو متوقِّفٌ عليهم. [١٨] والنَّاس مضطرُّون إليهم، وحقوقهم علىٰ وجه التَّفصيل لا يمكن عدُّها.

ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ قطعةً أخرىٰ من كلامه ساق فيها ثماني عشرة جملةً.

فالجملة الأولىٰ قوله: (**فصلٌ في حقوق أهل العلم**).

أي ما يثبت لهم من حقٍّ بطريق الشَّرع، وهؤلاء المُرادون في هذا الفصل هم أهل العلم الَّذين هم أهله، وتفسيرهم في قوله: (حقوق العلماء المعلِّمين).

فالمقصودون من أهل العلم هنا ليس كلَّ من انتسب إليه، بل هم أهل العلم الَّذين هم أهله، وأهل العلم الَّذين هم أهله أعظم شعارٍ دالٍّ عليهم أنَّهم يبثُّون العلم للنَّاس، فإنَّ العلم لا يُراد لذاته، وإنَّما يُراد به نفع النَّفس برفع الجهل عنها أوَّلًا، ثمَّ بثُّ العلم برفع الجهل عن النَّاس ثانيًا، ويقارنهما العمل بالعلم، فهذه هي المقاصد العظمىٰ المقدَّمة شرعًا في العلم، ومتىٰ اتَّصف العبد بها كان من أهل العلم الَّذين هم أهله.

والعلم شرعًا هو: إدراك خطاب الشَّرع، والمراد بالإدراك: وصول النَّفس إليه وحصولها عليه، فمتىٰ

استوفت النَّفس خطاب الشَّرع بالوصول إليه وحصلت عليه سُمِّي ذلك الإدراك علمًا.

ومراتب إدراك خطاب الشَّرع ثلاثةٌ:

أحدها: العلم، وهو إدراك خطاب الشَّرع.

وثانيها: الفقه، وهو إدراك خطاب الشَّرع والعمل به.

ثالثها: التَّأويل وهو إدراك خطاب الشَّرع والعمل به مع معرفة مآلات الأمور.

ذكر هذه المراتب الثَّلاث أبو عبد الله ابن القيِّم في «مفتاح دار السَّعادة» وابن سِعديٍّ في «مجموع الفوائد»، فإدراك خطاب الشَّرع مُرتَّبٌ تعلّيًا في هذه المصاعد.

فالمرتبة الأولىٰ: إدراكٌ للخطاب الشَّرعيِّ إدراكًا مُجرَّدًا يُسمَّىٰ علمًا، فإذا قارنه العمل سُمِّي فقهًا، وقد نقل ابن القيِّم في «مفتاح دار السَّعادة» إجماع السَّلف أنَّ اسم الفقه لا يكون إلَّا باجتماع العلم مع العمل، فإذا قارن العلم والعمل به إدراك العبد مآلات الأمور سُمِّي تأويلًا، وهو أعلىٰ المراتب الثَّلاثة، وبه دعا النَّبيُّ ﷺ لابن عمِّه عبد الله بن عبَّاسٍ رضي الله عنهما.

والجملة الثَّانية قوله: (أعظم الحقوق الواجبة بعد حقِّ الرَّسول ﷺ).

أي من الخلق، فإن المُقدَّم أوَّلًا هو حقُّ الخالق ﷻ، ولمَّا فرغ منه المصنِّف شرع يذكر حقوق الخلق، فبدأ بذكر حقِّ الرَّسول ﷺ ثمَّ أتبعه بحقِّ العلماء، وإنَّما جعل حقَّ العلماء بعد حقِّ الرَّسول ﷺ لأنَّهم هم أعظم خلقه حقًّا علىٰ الخلق بعد الرَّسول ﷺ.

وموجب ذلك قول المصنِّف رحمه الله: (حقوق العلماء المعلِّمين الَّذين هم الواسطة بين الرَّسول وبين أمَّته في تبليغ دينه، وبيان شريعته).

فعظم حقِّهم لعظم وظيفتهم، فإنَّ وظيفة العلماء شرعًا هي تبليغ الدِّين الَّذي جاء به النَّبيُّ ﷺ، وبه صاروا ورثةً للأنبياء كما في حديث أبي الدَّرداء المعروف الَّذي رواه أبو داود وغيره من حديث داود بن جميل، عن كثير بن قيسٍ عن أبي الدَّرداء رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا وَإِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ**»، وإسناده حسنٌ.

فالعلماء ورثة الأنبياء، وهذه الوراثة متعلَّقها تبليغ الدِّين، فإنَّهم صاروا ورَّاثًا لهم باعتبار أنَّ الأنبياء لم يتركوا ورائهم شيئًا من حطام الدُّنيا الزَّائل، وإنَّما تركوا الدِّين الَّذي بُعثوا به، فمن أخذ بالدِّين بالوصول إليه بالعلم فقد أخذ بحظٍّ وافرٍ فكان قائمًا بمقام وراثة النَّبيِّ ﷺ، فعظم حقِّهم علىٰ الخلق لعظم الوظيفة المناطة بهم، وهذه الوظيفة لا تثبت لهم باسمٍ ولا برسمٍ، وإنَّما تثبت لهم بوصفٍ، وهذا الوصف هو إدراكهم العلم وحيازتهم له وقيامهم ببذله، فمتىٰ وُجد هذا الوصف وُجد لهم هذا الحقُّ، ولا يُشترط أن يكون لهم لباسٌ أو منصبٌ أو رئاسةٌ أو جاهٌ أو غير ذلك حتَّىٰ يثبت هذا الحقُّ.

وإنَّما يُناط ذلك بوصف العلم الثَّابت لهم، فمتىٰ ثبت لهم وصف العلم : ثبت لهم الحقُّ المُرتَّب في الشَّرع.

ثمَّ قال المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: (الَّذين لولاهم لكان النَّاس كالبهائم).

أي لولا قيام العلماء بتبليغ الدِّين إليهم وإيصالهم ودلالتهم إليه لصاروا كالبهائم، قال ابن القيِّم في «مفتاح دار السَّعادة»: (لصاروا كالبهائم أو أسوأ حالًا) أي أشدَّ حالًا من البهائم، لأنَّ المُميِّز بين الآدميِّ والبهيمة العجماء أنَّ الآدميَّ له مدركٌ يدرك به من سمعٍ وبصرٍ وقلبٍ، فإذا أوصلته موارد الإدراك إلىٰ ما يجب عليه شرعًا تميَّز عن البهائم وإلَّا فلا، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَالْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾[الأعراف].

ومعنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾، ليس المقصود نفي الإدراك بتلك الآلات وإنَّما نفي الانتفاع بها، فهو له قلبٌ لكن لا يحصل الانتفاع به في الفقه، وله عينٌ لكن لا يحصل الانتفاع بها في الإبصار، وله أذنٌ لكن لا يحصل الانتفاع بها بالسَّمع.

فحينذاك يكون حاله أسوأ من حال البهيمة، فإذا فقد الإنسان تلك المدارك صار أسوأ من البهيمة، لأنَّ البهيمة لم تُخاطب بالأمر والنَّهي، وإنَّما الَّذي خوطب هم النَّاس، قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾[الذَّاريات].

فإذا فات الإنسان إدراك ما أُمر به في الخطاب الشَّرعيِّ صار أسوأ حالًا من البهيمة، وإنَّما يمكنه ذلك بالعلم، فإذا علم الإنسان أمكنه القيام بوظيفة العبادة.

والجملة الثَّالثة قوله: (حقوقهم علىٰ الأمَّة أعظم من حقِّ الآباء والأمَّهات، فإنَّهم رَبَّوا أرواح العباد وقلوبهم بالعلوم النَّافعة، والمعارف الصَّحيحة).

أي أنَّ ما لأهل العلم من حقٍّ علىٰ الخلق أعظم من حقِّ الآباء والأمَّهات، لأنَّ الأب والأمَّ هم أصل الجسد، وأمَّا العالم المؤدِّب فهو أصل حياة الرُّوح، كما قال المصنِّف: (فإنَّهم رَبَّوا أرواح العباد وقلوبهم بالعلوم النَّافعة، والمعارف الصَّحيحة) وما به قوام حياة الرُّوح أعظم ممَّا به قوام حياة البدن، قال الشَّاعر:

أَقْبِلْ عَلَىٰ النَّفْسِ فَاسْتَكْمِلْ فَضَائِلَهَا ... فَأَنْتَ بِالرُّوحِ لَا بِالْجِسْمِ إِنْسَانُ

قال أبو العبَّاس ابن تيميَّة: (المُعلِّم والمُؤدِّب أبٌ للرُّوح كما أنَّ الوالد أبٌ للجسد) انتهىٰ كلامه.

أي أنَّ مُعلِّمك ومُؤدِّبك هو أبٌ لروحك أي يُغذِّيها ويُحييها بما يصل إليك من لبان العلم والإيمان، وأمَّا الوالد من أبٍ أو أمٍّ فإنَّ إمداده لك لا يجاوز حياة البدن، وحياة الرُّوح أعظم من حياة البدن، فصار الحقُّ الثَّابت لهم علىٰ الأمَّة أعظم من حقوق الآباء والأمَّهات.

ومن جميل الأخبار المذكورة عن الكبار أنَّني لمَّا لقيت شيخنا سليمان بن حمدٍ السُّكَيت رَحِمَهُ اللَّهُ رئيس قضاة حائل، فصار يذكر لي شيوخه واحدًا واحدًا، فعدَّ منهم شيخًا له قرأ عليه وهو ابن أربع عشرة سنةً، وهو الشَّيخ عبد الله بن خلفٍ الدَّحيَّان، قرأ عليه في الكويت «أخصر المختصرات» و«بلوغ المرام» فقلت له مريدًا إبهاج نفسه: لقد صدر قريبًا كتابٌ عن سيرة شيخكم رَحِمَهُ اللَّهُ وسآتيكم به، فبكىٰ بكاءً شديدًا وقال:

(لا أحتاج هذا الكتاب، فإنَّ ذكريات الشَّيخ عبد الله في قلبي ودمي أكبر ممَّا في هـذا الكتـاب، ولحقُّه عليَّ أعظم من حقِّ أبي وأمِّي)، لأنَّ انتفاعه به كان أعظم من الانتفاع الَّذي وصل من أبيه وأمِّه، فإنَّه كـان الَّـذي درَّجه وشجَّعه علىٰ طلب العلم وقرأ عليه في صغره ثـمَّ استمرَّ رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ حتَّىٰ أدرك وولـي القضـاء في عدَّة بلدان انتهت به إلىٰ حائل، وكان رئيسًا لقضاتها ثمَّ توفِّي فيها رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ رحمةً واسعةً.

والمقصود أن تعرف أنَّ منفعة العالم لروحك أعظم من منفعة أبيك وأمِّك لبدنك فيكون حقُّه أعظم.

والجملة الرَّابعة قوله: (وهم هُداة الأمَّة في أصول دينهم وفروعه).

أي مرشـدوهم ودالُّـوهم علىٰ الخير فيمـا يتعلَّـق بالـدِّين أصـلًا وفرعًـا، فـإنَّ أصـل الهدايـة: الدَّلالـة والإرشاد، والله سبحانه وتعالىٰ قال عن رسوله ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢﴾[الشُّورىٰ].

وهذه الهداية المُثبتة له هي هداية البيان والإرشاد والدَّلالة، وكما هي ثابتـةٌ لـه فإنَّهـا ثابتـةٌ لورَّاثه وهـم العلماء. فالعلماء هم هداة الأمَّة في أصول الدِّين وفروعه، وليس شيءٌ يحتاجه النَّاس إلَّا وهـم مفتقـرون فيه إلىٰ هداية عالمٍ يدلُّهم ويُرشدهم.

والجملة الخامسة قوله: (وهم المَرْجُوع إلـيهم في أحكـام الحقـوق والمعـاملات، كمـا أنَّهـم المَرْجُـوع إليهم في أمور العبادات).

أي أنَّهم يُرجع إليهم فيما به قيام الدِّين وقيام الدُّنيا، فإنَّ قيام الدِّين يُذكر غالبًا في أمور العبـادات، وقيـام الـدُّنيا يُـذكر في أحكـام الحقـوق والمعـاملات، فالعبـادات كالوضـوء والصَّـلاة والصِّـيام والزَّكـاة، والمعاملات كالبيع والشِّراء والأنكحة والطَّلاق والجهاد والإمارة، فإنَّ قوام ما به حال النَّاس وصـلاحهم فيما يتعلَّق من أمور دينهم ودنياهم موكولٌ إلىٰ العلماء.

فإذا رجعوا إليهم فيما يحتاجونه في هذه الأبواب أفلحوا، وإذا أخـذوا بقـول غيـرهم ضـلُّوا، إلَّا أنَّ هـذا مشروطٌ بكون العالم كاملًا عارفًا ما يصلح به الدِّين والدُّنيا معًا، لا يكون عارفًا بمـا يصـلح بـه الـدِّين دون الدُّنيا.

ومن جميل كلام أبي العبَّاس ابن تيميَّة الحفيد رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ مـا نقلـه عنـه البعلـيُّ في كتـاب «الجهـاد مـن الاختيارات العلميَّة»: أنَّ الكلام في الجهاد لا يصلح ممَّن يعلـم مـا بـه صـلاح الـدِّين دون الـدُّنيا ولا مـا بـه صلاح الدُّنيا دون الدِّين، فالمتكلِّمون في الجهاد ثلاثة أصنافٍ:

أحدهم: من يعرف ما به صلاح الدِّين دون الدُّنيا، فهذا يُصلح الدِّين ويفسد الدُّنيا.

والآخر: من يعرف ما به صلاح الدُّنيا دون الدِّين، فهذا يُصلح الدُّنيا ويفسد الدِّين.

والثَّالث: من يعرف ما به صلاح الدِّين والدُّنيا، فهذا هو الَّذي يُقبل كلامه في الجهاد.

وعلىٰ هذا فقس في كلِّ أمرٍ ممَّا يتعلَّق بأحوال النَّاس، فإنَّ الصَّالح للكـلام فيهـا هـو الَّـذي يعـرف مـا بـه صلاح الدِّين والدُّنيا معًا، أمَّا من يعرف ما به صلاح الدِّين فقط أو الدُّنيا فقط فإنَّه ربَّما كان ما يفسـده أكثـر ممَّا يصلحه.

وعظم هذا الأمر يكون مع من كبرت سنُّه وطالت تجربته فبطول السِّنِّ وكثرة التَّجارب يتمحَّض عقل الإنسان، ويحصل له من بعد النَّظر وكمال الفكرة وحصول العبرة في متقلَّبات الأحوال ما لا يكون لغيره، وكم رأينا في شواهد التَّاريخ قديمًا وحديثًا دلائل بيِّنةً علىٰ أنَّ العارف بما يقول ممَّا به صلاح الدِّين والدُّنيا يحصل الخير بقوله وإشارته ورأيه.

وأنَّ من يعرف ما به صلاح أحدهما ربَّما جرَّ علىٰ المسلمين شرًّا عاجلًا أو آجلًا.

والجملة السَّادسة قوله: (بهم قام الكتاب والسُّنَّة، وبهم اتَّضح الحقُّ من الباطل، والهدىٰ من الضَّلال، والحلال من الحرام، والخير من الشَّرِّ، والصَّلاح من الفساد).

أي بهم ظهرت دلائل الكتاب والسُّنَّة بالعلم بها والعمل، فليس المقصود بهم قام الكتاب والسُّنَّة أنَّهم صاروا أهلاً لهما فقط، وإنَّما المقصود ظهور دلائلهما بالعلم والعمل، فتكون آيات الكتاب وأحاديث النَّبيِّ ﷺ ظاهرةً بيِّنةً بالعلم والعمل في النَّاس لإرشاد العلماء وهدايتهم ودلالتهم.

وبذلك يحصل التَّفريق بين المتقابلات من حقٍّ وباطلٍ وهدًىٰ وضلالٍ، وحلالٍ وحرامٍ وخيرٍ وشرٍّ وصلاحٍ وفسادٍ.

فإنَّه لا يتميَّز فصل هذا عن مقابله إلَّا بعلمٍ بيِّنٍ، وإذا لم يكن للإنسان علمٌ فإنَّه لا يُميِّز الحقَّ من الباطل ولا الهدىٰ من الضَّلال ولا الخير من الشَّرِّ، ولا الحلال من الحرام ولا الصَّلاح من الفساد، فيحتاج للعالم المُتمكِّن الرَّاسخ ليُميِّز الخبيث من الطَّيِّب ويفصل الحقَّ عن الباطل بما آتاه الله ﷻ من علمٍ ورويَّةٍ وعقلٍ.

والجملة السَّابعة قوله: (وهم في ذلك علىٰ مراتبهم طبقاتٌ، بحسب ما قاموا به من العلم والتَّعليم، والنَّفع الكثير أو القليل).

أي: أنَّ العلماء متفاوتون في مراتبهم فهم علىٰ درجاتٍ عدَّةٍ وطبقاتٍ متفاوتةٍ، وموجب المفاوتة بينهم هو ما يقومون به من العلم والتَّعليم والنَّفع الكثير أو القليل، فبه تتميَّز مراتب أهل العلم.

وليس تميُّزها بالشَّهادات أو الأموال أو المناصب، وإنَّما التَّمييز هو أثر قيامه بالوظيفة الَّتي جعلتها لهم الشَّريعة من تبليغ الدِّين ونشره وبذله ونفع النَّاس، فإذا كان المرء قائمًا بما يلزمه من تعليم النَّاس وهدايتهم وإرشادهم ودفعهم فإنَّ هذا في أعلىٰ الطَّبقات.

والنَّاس دونهم يتفاوتون في مقاديرهم من هذه الطَّبقات بحسب حظِّ أحدهم من العلم والتَّعليم والنَّفع، وفي قوله رَحِمَهُ اللهُ: (والنَّفع الكثير أو القليل) إعلامٌ بأنَّ نفع العالم لا ينحصر في بثِّ العلم فقط، بل للعالم جاهٌ لا يكون لغيره، وهذا الجاه هو الَّذي أكسبه إيَّاه علمه، كما قال رجلٌ للحافظ عبد الله بن عبد الرَّحمن الدَّارميِّ: (لولا العلم لما كنت عندنا شيئًا)، قال: (مدحتني حيث أردت أن تذمَّني)، أي أثبت له العلم، وأنَّه انتفع بالعلم فصاحب العلم له جاهٌ ينبغي أن يبذله فيما يستطيع، وهكذا كان العلماء العارفون بالله ﷻ يجتهدون في نفع النَّاس بالشَّفاعة والجاه والنُّصح والإرشاد ولا يقصِّرون نفعهم علىٰ العلم

والتَّعليم، فإنَّ العلم والتَّعليم بابٌ حسنٌ، ولكنَّ النَّفع بالجاه من أعظم موارد الخير، فمن جعل الله ﷻ له جاهًا فإنَّه ينبغي له أن يبذله، وإذا طالعت المذكور في ترجمة أبي العبَّاس ابن تيميَّة الحفيد الَّتي ذكرها الذَّهبيُّ رأيت كيف كان نفعه رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ للنَّاس والدَّهماء والعوامِّ عند الأمراء ورؤوس الجند بما كان يبتدئه من شفاعةٍ لهم رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ.

وهذا هو الَّذي ينبغي أن يكون عليه صاحب العلم في نفع النَّاس ليصل بهم إلىٰ الخير المرجوِّ لهم في الدُّنيا والآخرة فهو يحسن إليهم ولا يرجو منهم شيئًا.

والجملة الثَّامنة قوله: (فحقُّهم علىٰ الأمَّة كبيرٌ، ومقامهم جليلٌ).

وهذا تقريرٌ لما سبق ذكره من تعظيم حقِّهم وفي قوله: (حقوقهم علىٰ الأمَّة أعظم من حقِّ الآباء والأمَّهات) وقوله أوَّلًا: (أعظم الحقوق الواجبة بعد حقِّ الرَّسول ﷺ: حقوق العلماء)، فحقُّ العلماء علىٰ الأمَّة كبيرٌ كبَّره الشَّرع ومقامه جليلٌ أجلَّه وعظَّمه الشَّرع.

والجملة التَّاسعة: قوله: (فعلىٰ النَّاس أن يحبُّوهم، ويُجلُّوهم، ويوقِّروهم).

أي: من الواجب علىٰ الخلق أن يحبُّوا أهل العلم؛ لأنَّ الله قال: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ ﴾[التَّوبة:٧١]، وأعظم آصرة الوَلاية هي المحبَّة. فالمحبَّة هي أصل الولاية بين المؤمنين وأحقُّ المؤمنين بالمحبَّة هم رؤوسهم والمُقدَّمون فيهم وهم العلماء.

فعلىٰ النَّاس أن يحبُّوا علماءهم وهم يحبُّونهم لما هم عليه من العلم والهداية والدَّلالة، فلا يحبُّونهم لأنسابهم أو أحسابهم أو شهاداتهم أو رئاساتهم، وإنَّما يحبُّونهم لأجل ما هم عليه من العلم والتَّعليم.

(ويُجلُّوهم) أي: يعظِّموهم، (ويوقِّروهم) أي: يكبِّروهم ويعظِّموهم، وقد بوَّب جماعةٌ من أهل العلم تراجم في توقير العالم وإجلاله كالدَّارميِّ والخطيب في «الجامع» وغيرهم.

والأصل فيه حديث أسامة بن شَريكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الَّذي رواه النَّسائيُّ وغيره، قال: (أتيت النَّبيَّ ﷺ وعنده أصحابه كأنَّما علىٰ رؤوسهم الطَّير) وإسناده صحيحٌ، فلمَّا جاء أسامة فرأىٰ أصحاب النَّبيِّ ﷺ عنده كالطَّير لا يتحرَّكون إجلالًا وتوقيرًا وإعظامًا للنَّبيِّ ﷺ، والعلماء هم ورثة الأنبياء ولذلك لهم حقٌّ من إعظام الشَّرع والتَّوقير والإجلال.

وعند الدَّارميِّ والخطيب وغيرهما من حديث عبد الرَّزَّاق عن معمرٍ عن عبد الله بن طاووس عن طاووس بن كيسان رَحِمَهُ اللهُ أحد التَّابعين أنَّه قال: (من السُّنَّة أن يُوقَّر أربعةٌ، العالم والسُّلطان والوالد وذو الشَّيبة).

فممَّن ينبغي تعظيمُه شرعًا العالم.

والجملة العاشرة قوله: (ويعترفوا بفضائلهم، وفواضلهم).

أي يقرُّوا بما لهم من الفواضل والفضائل وتقدَّم بيان الفرق بينهما وهو؟ تقدَّم معنا في شرح هذا الكتاب أنَّ الفضائل هي الكمالات المتعلِّقة بالنَّفس، والفواضل هي الكمالات المتعدِّية إلىٰ غيرك.

فمثلاً العلم من الفضائل والكرم من الفواضل فالأصل في العلم أنَّه من المحاسن اللَّازمة للنَّفس، والأصل في الكرم أنَّه يتعدَّىٰ ويصل إلىٰ غيرك.

والجملة الحادية عشرة قوله: (ويشكروهم علىٰ ذلك غاية الشُّكر).

أي يجب علىٰ النَّاس أن يشكروا العلماء علىٰ ما يبذلونه من العلم والتَّعليم والنَّفع القليل والكثير، قيامًا لما أوجبه الله ﷻ عليهم، وعند أبي داود من حديث الرَّبيع بن مسلم عن محمَّد بن زيادٍ عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**لَا يَشْكُرُ اللهَ مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ**»، والاسم الأحسن الله فيه ضبطان:

أحدهما: أن يكون مرفوعًا يعني فاعلًا للشُّكر مبتدئًا له، فيكون معنىٰ الحديث: لا يشكرُ الله أي: لا يبتدئ الله ﷻ بشكر أحدٍ من خلقه إذا لم يشكر النَّاس.

والله ﷻ يَشكُر ويُشكَر، فهو يَشكُر من أحسن عملًا ويُشكَر ﷻ علىٰ ما أوصله إلىٰ خلقه من الإنعام، قال أبو العبَّاس ابن تيميَّة: (إذا عملت لله طاعةً فلم تجد لها أثرًا فاتَّهم نفسك فإنَّ الرَّبَّ شكورٌ).

أي: يُبادر العبدَ بإظهار آثار طاعته عليه، فهو يشكر الخلق علىٰ ما يبتدئون من الأعمال.

والآخر: أن يكون بنصب الاسم الأحسن: لا يشكر اللهَ من لا يشكر النَّاس، أي: من لا يقوم بشكر النَّاس فإنَّه لن يقوم بشكر الله، فيكون الفاعل محذوفًا، والاسم الأحسن منصوبٌ علىٰ أنَّه مفعولٌ به.

والجملة الثانية عشرة قوله: (ويدعوا لهم سرًّا وعلنًا).

أي من حقوق العلماء علىٰ النَّاس أن يدعوا لهم في السِّرِّ والعلن؛ لأنَّهم يوصلون إلىٰ النَّاس معروفًا، وممَّا يُكافئ به صاحب المعروف الدُّعاء له.

فعند أبي داود وغيره من حديث سليمان الأعمش عن مجاهد بن جبر عن ابن عمر رضي الله عنهما أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**وَمَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُونَهُ فَادْعُوا لَهُ**»، فممَّا يحصل به المكافئة عند عدم القدرة علىٰ مقابلتها أن يدعو الإنسان لمن أحسن إليه.

والعلماء لا يُقْدَرُ علىٰ مكافئتهم بشيءٍ من حطام الدُّنيا، فيدعو الإنسان لهم في سرِّه وعلنه، وقد قال الإمام أحمد لابن الشَّافعيِّ: (إنِّي لأدعو في صلاتي لجماعةٍ أو قال لخمسةٍ أبوك منهم)، يعني واحدٌ منهم، فلم ينسَ الإمام أحمد رحمه الله تعالىٰ شيخه الشَّافعيَّ فيما وصل إليه من العلم بالدُّعاء له، وكان يحيىٰ بن معينٍ يعيب علىٰ الإمام أحمد اتِّباعه بغلة الشَّافعيِّ، فقال الإمام أحمد: إن فاتك حديثٌ بعلوٍّ أدركتَه بنزولٍ، وإن فاتك فقه هذا الرَّجل لم تدركه، يعني أنَّ ما كان عند الشَّافعيِّ من فهم الدِّين وإحسان الجمع بين الأدلَّة ولاسيَّما الأحاديث النَّبويَّة لا يجده عند غيره، فكان يدعو له رحمه الله تعالىٰ.

ورأيت رجلاً من الصَّالحين دخل عند أحد مشايخنا رحمه الله تعالىٰ فقال له: (إنِّي أدعو في صلاتي لجماعةٍ في آخر اللَّيل أنت أحدهم وابن بازٍ وابن عثيمين والألبانيُّ -رحمهم الله- تعالىٰ).

فالَّذي يريد مكافئة العلماء يدعو لهم ما استطاع إلىٰ ذلك سبيلًا في سرِّه وعلنه.

والجملة الثَّالثة عشرة قوله: (ويتقرَّبوا إلىٰ الله بمحبَّتهم والثَّناء عليهم).

أي يجعلون ذكر محاسنهم بالإخبار عنها مرَّةً بعد مرَّةٍ ومحبَّتهم قربةً يتقرَّبون بها إلىٰ الله ﷻ فهم يرجون الأجر والثَّواب من الله ﷻ علىٰ محبَّة العلماء والثَّناء عليهم، والثَّناء هو تكرار ذكر المحاسن مرَّةً بعد مرَّةٍ.

فإنَّ الإخبار عن المحاسن يُسمَّىٰ حمدًا، فإذا كُرِّر سُمِّي ثناءً، أفاده أبو عبد الله بن القيِّم في قاعدةٍ ذكرها في «بدائع الفوائد» في الفرق بين الحمد والثَّناء والتَّمجيد.

والجملة الرَّابعة عشرة: (وينشروا محاسنهم).

أي من حقِّ العالم علىٰ النَّاس أن ينشروا محامده الَّتي يعرفونها عنه، لما في نشر محاسنه من تطييب ذكره، وإذا طاب ذكره حصل النَّفع به بإقبال الخلق عليه.

والجملة الخامسة عشرة قوله: (ويغضُّوا القلب واللِّسان عن مساويهم).

أي: يحفظوا قلوبهم عن الظُّنون السَّيِّئة، وألسنتهم عن الكلام البذيء الَّذي لا يليق عن مساوئ العلماء (الَّتي إذا وُجدت اضمحلَّت في جنب محاسنهم)، فإنَّ صدور الخطيئة منهم جائزٌ، بل هو واقعٌ شرعًا وقدرًا فإنَّهم لا يُحفظون من ذلك، وهم كسائر الخلق.

وعند مسلمٍ من حديث سعيد بن عبد العزيز عن أبي إدريس الخولانيِّ عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال فيما يرويه عن ربِّه ﷻ: «**يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا**» الحديث.

فأخبر عن سجيَّة ابن آدم من مقارفة الخطيئة ومواقعتها، فأهل العلم تصدر منهم الخطايا، وإذا وُجد شيءٌ من هذه الذُّنوب والخطايا فإنَّها تضمحلُّ أي: تزول في جنب محاسنهم الَّتي لهم، فيجب علىٰ العبد أن يحفظ قلبه عن الظُّنون الفاسدة فيهم ويحفظ لسانه عن القول الباطل فيهم، والمُراد بالقول الباطل ما خالف الشَّرع، أمَّا ما وافق الشَّرع فإنَّه لا يكون باطلًا.

كالرَّدِّ علىٰ زلَّات العلماء، فإنَّ الرَّدَّ علىٰ زلَّات العلماء لا يُخالف الشَّرع، قال الإمام أحمد رحمه الله: (لم يزل النَّاس يردُّ بعضهم علىٰ بعضٍ)، فالرَّدُّ علىٰ الخطأ وبيانه وكشفه هذا أمرٌ جائزٌ شرعًا، بل مأمورٌ به بشروطه وآدابه الشَّرعيَّة الَّتي من عرفها قام بما لله من حقٍّ وما للخلق من حقٍّ.

والجملة السَّادسة عشرة قوله: (وعليهم أن ينتهزوا الفرصة في وجودهم، فيغترفوا من معين علمهم، ويسترشدوا بنورهم).

أي: عليهم أن يتداركوا مدَّة وجودهم فيغتنموها بالاستفادة منهم مغترفين (من معين علمهم) أي: نبعه الصَّافي، مسترشدين (بنورهم) أي: بهدايتهم المقتَبسة من مشكاة الكتاب والسُّنَّة.

فإنَّ الَّذي هو اليوم بين يديه ربَّما لا يكون غدًا بين يديه، إمَّا بموته وإمَّا بعدم التَّمكُّن من الانتفاع منه، وقد روىٰ الدَّارميُّ وغيره من حديث يعلىٰ بن حكيمٍ عن عكرمة عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما أنَّه قال لمَّا مات النَّبيُّ ﷺ: (قلت لرجلٍ من الأنصار: هلمَّ بنا نسأل أصحاب النَّبيِّ ﷺ قبل أن يذهبوا)، فقال: (يا ابن عبَّاسٍ وهل تظنُّ النَّاس يحتاجون إليك وأصحاب النَّبيِّ ﷺ فيهم؟) قال ابن عبَّاسٍ: (فما مات ذلك

الأنصاريُّ حتَّىٰ رأيت النَّاس مجتمعين عليَّ يسألونني)، فكان يقول: (كان هذا الفتىٰ أعقل منِّي)، يعني أنَّ ابن عبَّاسٍ لمَّا سارع إلىٰ المبادرة بسؤال أصحاب النَّبيِّ ﷺ قبل ذهابهم، بقي حتَّىٰ احتاج إليه النَّاس وصاروا يسألونه.

فينبغي أن يعاجل الإنسان الانتفاع بالعالم قبل ذهابه وألَّا يُسوِّف، قال بعض السَّلف: (سوف جندٌ من جند إبليس)، لأنَّها تمنع الإنسان من المبادرة إلىٰ الخير، فتحرمه منه.

وقد رأيت رجلاً كان أبوه يُشار إليه بالتَّقدُّم في القراءات في الحرمين، وقد حفظ القرآن في زمانه وحفظ الشَّاطبيَّة في عهده، ثمَّ بقي يمنِّي نفسه أنَّه يقرأ عليه القراءات السَّبع، فمات أبوه وهو رجلٌ كبيرٌ ولم يقرأ عليه إلَّا رواية حفصٍ، وكان في النَّاس من قرأ علىٰ والده القراءات السَّبع، فهكذا التَّسويف والمُماطلة في اللُّحوق بالخيرات يُذهب عن الإنسان الخير ويفوِّته إياها.

والجملة السَّابعة عشرة قوله: (ويعملوا جميع ما يقدرون عليه من الأسباب الَّتي تريحهم وتفرِّغهم لما هم بصدده من مهمَّاتهم الَّتي هي أعظم المهمَّات علىٰ الإطلاق) إلىٰ قوله: (ممَّا هو متوقِّفٌ عليهم).

أي: ينبغي من حقِّ العلماء علىٰ النَّاس أن يجتهدوا في إعانتهم علىٰ حوائج الدُّنيا بتوفير الأسباب الَّتي تفرِّغهم للقيام بمهامِّ العلم من تعليم الطَّلبة المُستعدِّين أي: المُتقبِّلين للعلم المُتجرِّدين له، ومن إرشاد العوامِّ، ومن الفتاوىٰ الصَّادرة، ومن الفصل في الحكم في الخصومات بين النَّاس بالقضاء، فإنَّ نفع العالم لا يكون إلَّا بتفرُّغه، ومن أخبار سفيان الثَّوريِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّه ذكر أنَّ أمَّه كانت تقول: (اذهب فتعلَّم وأنا أعولك بمغزلي).

أي: اذهب اطلب العلم وما تحتاج إليه من مالٍ فأنا أغزل به بهذا المغزل وأنسج الثِّياب وغيرها وأبيعها وننتفع بالمال الَّذي يأتي منها.

ومن أخبار الثَّوريِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ أنَّه كان إذا جاءه رجلٌ يلتمس العلم سأله هل له كفايةٌ من عيشٍ فإن قال نعم: أمره بطلب العلم وإن قال: لا، أمره بطلب ما يكفيه من العيش، لأنَّ العبد إذا بُدِّد شمله بطلب العيش لم ينل العلم، ويحتاج الأمر إلىٰ مجاهدةٍ عظيمةٍ، وفي الأخبار المنقولة عن الخَضِر أنَّه قال: يا موسىٰ إذا أردت العلم فتفرَّغ له.

والمقصود أنَّ من أراد أن يحوز العلم ينبغي له أن يتفرَّغ له، ومن أراد أن ينفع النَّاس بالتَّعليم فإنَّه يتفرَّغ لهم، لأنَّ شُغل القلب بمطالب الدُّنيا يضيِّق القلب عن العلم، ويعزب فيه الفهم عن مسائل العلم النَّافعة، وقد ذكر النَّوويُّ أو غيره عن الشَّافعيِّ، أظنُّه في «تذكرة السَّامع والمتكلِّم» لابن جَمَاعة، أنَّ الشَّافعيَّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ قال: (لو كلَّفني أهلي بشراء بصلةٍ لما فهمت مسألةً)، يعني أنَّ القلب إذا شُغل بشراء أشياء، ولو كان كشراء البصل يغدوا ويروح في هذه الأمور فإنَّه يضعف عن حمل العلم.

وهذا الأمر وهو أمر التَّفرُّغ للعلم سواءً في حقِّ المُتعلِّم أو المُعلِّم من أوابد هـذا الـزَّمن الَّـذي غـادر فيـه النَّاس ما كان عليه السَّلف -رحمهم الله- من العناية بالمُعلِّمين والمُتعلِّمين، وإرصاد الأوقاف لهم، وتفريغهم للعلم، لأنَّه أعظم الجهاد الَّذي يُحفظ به الدِّين، والمرء اليوم أشدُّ مجاهدةً في طلب العلم ممَّا كان عليه الزَّمن الأوَّل، فإنَّ الزَّمن الأوَّل المساعد فيه كثيرٌ، وأمَّا الآن فالمساعد قليلٌ، ويجب علىٰ العبد ألَّا يشغل نفسه بطلب التَّفرُّغ الكامل فإنَّ هذا ربَّما صار صعب المنال مع ذهاب الأوقاف ونحوها.

ولكن عليه أن يناسب بين شغل عيشه وبين طلبه العلم، وأمَّا إضاعة الوقت بانتظار حصول التَّفرُّغ وكمال المعيشة يَذهب به مع الإنسان أحلامه وأمانيه، فإنَّ الأماني رؤوس أموال المفاليس، فلا تمنِّ نفسك، ولكن حاول مجتهدًا مجاهدًا أن تجمع بين حالك وبين ما ينبغي عليك في طلب العلم حتَّىٰ تصل إلىٰ مطلوبك، وهذا من أعظم الجهاد الَّذي يحتاجه النَّاس في هذا الزَّمان، وأرىٰ القائم به أعظم حالًا وأكمل ممَّا كان عليه الأوائل، فإنَّ الأوائل كانوا يعانون عليه، وأمَّا اليوم فصار أكثر النَّاس يُخذل عن العلم تعلُّمًا وتعليمًا.

فالثَّبات عليه والاكتفاء بقدر ما يصل إلىٰ الإنسان من القوت والمجاهدة في ذلك من أعظم أبواب الجهاد.

والجملة الثَّامنة عشرة قوله: (والنَّاس مضطرُّون إليهم، وحقوقهم علىٰ وجه التَّفصيل لا يمكن عدُّها).

أي: أنَّ النَّاس يحتاجون إلىٰ العالم اضطرارًا، فلا وقوف لهم عمَّا به مصالح الدُّنيا والآخرة إلَّا بدلالة العالم وهدايته، وباستغنائه عنهم كملت حاله.

قال سفيان الثَّوريُّ: (العالم مستغنٍ عن النَّاس، والنَّاس مُحتاجون إليه)، ووجه استغنائه عن النَّاس أنَّه لا يريد منهم شيئًا، فهو لا يُطالب ولا يُغالب ولا يُعاتب، استغناءً لما قام في نفسه من الغنىٰ.

وفي صحيح البخاريِّ عن ابن أبي الزِّناد عن الأعرج عن أبي هريرة ﵁ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**لَيْسَ الْغِنَىٰ عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ وَلَكِنَّ الْغِنَىٰ غِنَىٰ النَّفْسِ**»، ورواه مسلمٌ من وجهٍ آخر من حديث أبي هريرة ﵁.

فالعالم أعظم النَّاس غنًىٰ في نفسه، فهو لا يحتاج إلىٰ النَّاس والنَّاس محتاجون إليه، لافتقار هدايتهم ودلالتهم وإرشادهم في مصالح الدُّنيا والآخرة علىٰ إرشاد العالم.

وقوله ﵀: (وحقوقهم علىٰ وجه التَّفصيل لا يمكن عدُّها) أي: في هذا المختصر، فإنَّ لهم حقوقًا

كثيرةً وهي من مطالب العلم الَّتي ينبغي أن يحرص عليها طالب العلم، ليقوم بما يجب للعلماء من حقوقٍ، ومن التَّآليف المُفردة في الكتب المصنَّفة في أدب العلم ما يرشد إلىٰ ذلك ككتاب «الجامع لأخلاق الرَّاوي وآداب السَّامع» للخطيب البغداديِّ، وكتاب «بيان فضل العلم» للحافظ أبي عمر بن عبد البرِّ رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ. في هذين الكتابين وغيرهما إشارةٌ إلىٰ جملٍ وافرةٍ من حقوق أهل العلم، ومن قام بحقِّ أهل العلم أوشك أن يُدرك العلم، ومن لم يقم بحقوقهم فإنَّه لا يصل إليه العلم، ولو وصل إليه شيءٌ من العلم فإنَّه يكون علمًا مُشوَّشًا لا ينتفع به.

لكنَّ من عرف للعالم أبوَّته ومقامه ومنزلته وحقَّه ورتبته فجعل له ما جعل الشَّرع من حقٍّ، وقام به وامتثل تقرُّبًا إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فإنَّه يفوز في الدُّنيا والآخرة.

وإذا كان مُضيِّعًا تاركًا لذلك فإنَّه يُخشىٰ عليه من الخسران، وهذه الحقوق لا تُجعل للعالم لأجل شيءٍ إلَّا لعلمه، ولا يُطالب بها المُتعلِّم لشيءٍ إلَّا عبوديَّةً لله عَزَّ وَجَلَّ، وهذا معنىٰ قول شعبة: (من علَّمني حديثًا صرت له عبدًا).

أي من طوَّق عنقي بالفضل بالتَّعليم، فإنَّني يكون في قلبي نوع رقٍّ له شكرًا لما أوصل إليَّ من الخير الَّذي أجراه الله عَزَّ وَجَلَّ علىٰ يديه.

وهذا آخر بيان هذه الجملة من الكتاب، ونستكمل بقية الكتاب إن شاء الله تعالىٰ في الدَّرس القادم.